

إنهم يقتلوننا أيها الرفاق

المرحلة السوداء التي شهدت حرب المخيمات الاجرامية، بدأ مسلسل اغتيال الشيوعيين واليساريين بالرمز عبر قتل الكاتب الكبير حسين مروة، الذي تبعه اغتيال المفكر مهدي عامل، وبالفاعلية عبر اغتيال المناضل والصحافي سهيل الطويلة ومعه كوكبة من مناضلي الحركة الشيوعية: خليل نعوس وميشال واكد وديب الجسيم، اضافة الى مقاتلي جبهة المقاومة الوطنية الذين لوحقوا واعتقلوا وتعرض بعضهم للقتل. وقبل هؤلاء تم اغتيال احمد المير الأيوبي في طرابلس.

يومها شكلت جبهة المقاومة افقا جديدا، علمانيا ومقاوما، فهددت البنية الطائفية الهمجية التي استولت على الحياة السياسية اللبنانية بعد عام 1982، مثلما اسست لروح وطني استقلالي كان قادرا على صد الاطماع الاقليمية، واستراتيجيا النظام السوري لابقاء لبنان ساحة، تمهيدا للاستيلاء عليه.

ما اشبه اليوم بالامس. انتفاضة الاستقلال التي اعطاها اليسار اللبناني روحه وعقله وقلبه، من اجل رسم افقها المستقبلي، والتقدم بها نحو تحقيق هدف اسقاط الدولة الامنية، وصولا الى عروبة جديدة، ديموقراطية وعلمانية وحديثة، هي المستهدفة اليوم. وليس مستغربا ان تكون القوى العلمانية واليسارية في مرمى النار. الهدف ليس التخويف بل التصفية، تماما مثلما حصل في اواسط الثمانينات. اخراج اليسار العلماني من المقاومة كان ثمنه غاليا جدا على لبنان، وحذف هذا اليسار من التحالف الاستقلالي العريض سوف يكون مروعا، لأنه سيترك المستوى السياسي في ملعب الطوائف الذي يسهل على القوى الخارجية التلاعب به.

لأجل هذا قتلوا سمير قصير وجورج حاوي، ويستعدون لمزيد من القتل. ولأجل هذا فان العلمانيين والديموقراطيين مهددون اليوم بالتصفية.

انهم يقتلوننا ايها الرفاق.

مهمة الدفاع عن استقلال لم يكتمل بعد، هي واجب كل اللبنانيين، وواجبهم ايضا حماية ابنائهم من المثقفين والمناضلين الديموقراطيين الذين يشعرون اليوم ان دمهم مستباح، وانهم في مرمى البنادق المصوبة اليهم.

لا شيء يردع القتل سوى الارادة الشعبية.

عودوا الى الوحدة التي صنعت الرابع عشر من آذار. عودوا الى المسألة الرئيسية التي تتمثل اليوم في انهاء الهيمنة الامنية على السياسة، وفي ردع عصابات القتل التي تعبت بحياة الناس. اوان الانقسامات لم يأت بعد. يجب انجاز المهمة الاستقلالية، وبعد ذلك يحق لنا ان نختلف على البرامج السياسية والخيارات الاجتماعية.

عودوا الى الشارع ايها الرفاق.

عودوا الى الوجود، كي لا يكون ثمن التردد ضياع الاستقلال وموت الحرية والثقافة.

الجموع التي احتشدت لحظة وقوع جريمة اغتيال جورج حاوي، طرحت سؤالاً واحداً: من التالي؟ وكان السؤال بديهياً، رغم ان سؤالاً آخر كان يجب ان يطرح. لكن بدلا من التساؤل عن القاتل الذي يفرق لبنان في دم خيرة ابناؤه، جاء التساؤل عن القاتل. كأن الجموع تعرف القاتل وليست في حاجة الى السؤال عن هويته، وتعرف ايضا ان لبنان يواجه مسلسلا اجراميا، وان الجريمة لن تتوقف اذا لم تجد رادعا سياسيا واخلاقيا وامنيا.

لم يتوقف الذهول امام الفجعة الا عبر اجراء مقارنة بسيطة بين اغتيال جورج حاوي واغتيال سمير قصير. التشابه مدهش ومخيف. كأن القاتل اراد توقيع جريمته الجديدة بجريمته السابقة، معلنا بصفاقة من لا يخشى الحساب، انه لم يكتف بقتل حامل الحلم والقلم، بل يريد قتل ذاكرة الحلم ايضا، وان لبنان لا يزال امام بداية الامتحان الدموي الوحشي لاستقلاله الجديد.

لم يعد الاستنكار كافيا، لكن الشموع التي تضاء في مسرح الجريمة ستبقى مشتعلة، لأنها تعلن ثقافة الحياة في مواجهة ثقافة الموت، مثلما كتب رفيقنا الحبيب سمير قصير، محددنا افق المعركة الكبرى في تاريخ لبنان. انها معركة السلام ضد الحرب، ومعركة الحرية ضد الاستبداد، ومعركة المجتمع المدني ضد العسكرية التي تحتضر.

لكن السؤال هو لماذا استهداف العلمانيين واليساريين اليوم؟ بعد اغتيال الرئيس رفيق الحريري والنايب باسل فليحان ورفاقهما، انطلقت انتفاضة الاستقلال، واجبر الجيش السوري على الانسحاب، وكتب اللبنانيون واللبنانيات ملحمة الحرية في ساحة الحرية. بدل ان يتحول الاغتيال الاجرامي عامل ترهيب وتخويف، احدث انقلابا سياسيا ونفسيا، فانكسر حاجز الخوف، وسقطت هيبة آلة المخابرات، وتداعت السلطة القمعية تحت قبضات المتظاهرين المرفوعة وحناجرهم التي تهتف للاستقلال. اعتقد اللبنانيون ان رفيق الحريري سيكون آخر الشهداء، وان الدائرة الدموية التي بدأت باغتيال قائد الحركة الوطنية اللبنانية كمال جنبلاط، قد اكتملت، وان انتفاضتهم الاستقلالية السلمية نقلت لبنان الى السلم الحقيقي التي طال انتظاره.

في الثاني من حزيران سقط سمير قصير مضرجا بالدم والحبر، وبعد اسبوعين قتل جورج حاوي بالطريقة نفسها. لا لجنة التحقيق الدولية، ولا نتائج الانتخابات النيابية استطاعت ردع القتل. القاتل يريد استعادة منطق الساحة الدموية في لبنان معتقدا انه يستطيع ان يستعيد بالدم سطوته ونفوذه، ومتوهما ان التأمير والقتل والاجرام تستطيع اعادة التاريخ الى الوراء.

لعل قراءة احد فصول التاريخ الاجرامي تساعدنا في فهم الابعاد المخيفة لمسلسل الجريمة الذي بدأ باغتيال سمير قصير ولن ينتهي للأسف باغتيال جورج حاوي.

كان ذلك عامي 1986 و1987، وكان الهدف الفعلي تصفية جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية للاحتلال الاسرائيلي. في تلك